الإسلام والتفرقة العنصرية

ألغى الإسلام في المجتمع المغلق (مجتمع العشيرة[1] ومجتمع القبيلة[2])، وفي المجتمع المدني والإنساني والدولي كل ألوان التفرقة العنصرية بسبب الأصل أو العرق أو الجنس أو اللون، أو الانتماء الديني أو المذهبي، وكان هذا الإلغاء لمختلف أنواع التمييز سبباً ملموساً في إقبال الناس على الدخول في الإسلام، سواء في المجتمع الجاهلي العربي قبل الإسلام، أو حتى في عصرنا الحاضر بين أعلام المفكرين أو الزنوج.

ومما يؤسف له أن الاستعمار الغربي في القرن العشرين إنما كان من أهم بواعثه أو دوافعه هو النظرة الفوقية والاستعلاء فوق الشعوب الضعيفة، أو الفارق اللوني للسود، سواء في أمريكة الشمالية وأوربة، أو في إفريقية وآسية، وظل هذا التمييز العرقي مهيمناً على أفكار الغربيين في أوربة وأمريكة ومقارناً للاستعمار، إلى أن تمت تصفيته غالباً في النصف الثاني من القرن العشرين، كما حدث في جنوب إفريقية، ولكن التفرقة العنصرية ما تزال قائمة في الكيان الصهيوني البغيض في فلسطين سواء ضد العرب، أو ضد اليهود الأفارقة السُّمْر.

ويفخر الإسلام ورجالاته بالعمل على نبذ التفرقة العنصرية بجميع أشكالها، خلافاً لما نشاهده ماثلاً لدى بعض الدول الكبرى، وموقف الإسلام من هذا الاتجاه واضح في نصوصه التشريعية والعملية والسياسية المنهجية.

فمن نصوص التشريع الإسلامي قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ٤/ ١].

---

(١) العشيرة: مجموعة من الأفراد ينتسبون إلى أصل واحد أو جد واحد.

(٢) القبيلة: عدد من العشائر ينضم بعضها إلى بعض بصلة القرابة أو بالاتفاق أو بالقوة أحياناً لمصلحة حيوية أو اجتماعية أو سياسية.

وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣]. وهذا تقرير للوحدة الإنسانية، وإعلان واضح لحق المساواة بين الناس في العالم الذي ينبثق عنه إلغاء التفرقة العنصرية.

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٠٨] وهو تقرير لحمل الناس قاطبة على الانضمام تحت راية واحدة، ومظلة واحدة، ولواء واحد، هو لواء السلم والمعاهدة والأمن والتعاون والتكافل لبقاء العالم كله في حالة من الاستقرار والرخاء والانتعاش الحضاري والنماء الاقتصادي، وراحة النفس، والدينونة لله وحده لا شريك له، فهو رب الناس جميعاً، وهم مطالبون بالعبودية الحقة له.

ومن أجل تنمية مشاعر الإنسانية المتساوية، كانت نزعة الإسلام نزعة عالمية، ليس فيها فوقية، ولا عنصرية، ولا طبقية، لا تفريق فيه بين الشعوب والأمم والأصول والأعراق والألوان. وكان نداء القرآن الخالد على الدوام عدم التفرقة بين جنس وآخر، أو فئة وأخرى، فقال الله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/١٥٨].

ونصوص القرآن ملزمة قد ينضم إليها إيضاحات أو تفسيرات أو إضافات مضيئة أو جديدة مرجعها إلى الوحي الإلهي إذا كانت ثابتة صحيحة منها قول النبي ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[1]، والعصبية تشمل مظاهر الانغلاق العنصري أو القومي أو الشعوبي، أو الفئوي أو اللوني أو غيره من حالات المناصرة على الظلم، وفي نبذ ذلك توجيهات نبوية منها:

(١) أخرجه أبو داوود في سننه.

«إن الله قد أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية[١]، فخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعَنَّ رجال فخرهم بأقوام، إنما هو فحم من فحم جهنم، أو ليكونُن أهون على الله من العُجْلانَ[٢] التي تدفع بأنفها النتن»[٣].

وليس من التفرقة العنصرية حب الوطن والولاء له، أو لقوم معينين أو لقبيلة أو أصل محدد أو شعب أو قضية ما، لأن هذا طبيعة في النفس وغيرة لا تقترن بارتكاب المظالم، أو التعصب، أو التكبر، أو التنكّر للآخرين، بدليل أن ذلك مجرد عاطفة وحنين وألفة وميل قلبي، ولأن الله تعالى جعل الخروج من الوطن بمنزلة قتل النفس، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٤/٦٦] وأوضح نبينا عليه الصلاة والسلام هذا الميل النفسي حينما سئل: «أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ فقال: ليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، وإنما العصبية أن يعين قومه على الظلم»[٤].

إن التفرقة العنصرية إذن هي الدافعة إلى إلحاق الظلم أو الجور بالآخرين، أو التكبر والعسف وبطر الحق ومعاداته، ومن أمثلتها: العصبية العمياء في الجاهلية العربية حينما كان الواحد يناصر القبيلة على الخير أو الشر دون تمييز أو سؤال عن مدى مشروعية المناصرة، كما قال قائلهم في بيان أعرافهم وعاداتهم القبلية:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهاناً

وكان الرومان والإغريق أشد الأقوام عنصرية ضد غيرهم من الشعوب الأخرى، فقتلوا واسترقُّوا مئات الألوف.

ومن الأمثلة الدامية ما فعلته محاكم التفتيش في أوربة بين الأوربيين أنفسهم لمناصرة الكاثوليكية ضد الأرثوذكس وغيرهم، وما فعلته ضد الإسبان العرب

(١) أي تفاخرها بالأجداد والآباء والاستكبار المقيت.
(٢) كل دويّبة صغيرة كالخنافس والصراصير.
(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داوود والترمذي وحسَّنه.
(٤) أخرجه أبو داوود والبيهقي.

بعد استيطان لمدة سبعة قرون، وكذلك فعل الغرب في الحروب الصليبية الويلات مع العرب فقتلوا مثلاً في بيت المقدس سبعين ألفاً في يوم واحد حتى سالت الدماء في الطرق.

ومنها ما ارتكبه الأمريكان من مجازر وإبادة جماعية للزنوج الحمر الهنود، حيث قتلوا أكثر من ١٢ أو ١٦ مليوناً.

وما أعلنته ألمانية النازية أن أصحاب الدم الأزرق أرفع من بقية دماء العالم.

وما ارتكبه الأوربيون في الحربين العالميتين الأولى والثانية في النصف الأول من القرن العشرين من قتل أكثر من ستين مليون نسمة.

وما فعله المستعمرون الغربيون من بريطانية وفرنسة وإيطالية وهولندة والبرتغال والأسبان في الشعوب الآسيوية في الهند وإندونيسية وغيرها، وكذلك في الشعوب العربية والإفريقية حيث قتلوا وشردوا عشرات الملايين من العرب والأفارقة السود، من أجل مطامعهم.

وهذا في قمة العنصرية البغيضة والتفرقة المهينة.

وما فعله الكيان الصهيوني في فلسطين على مدى أكثر من ستين سنة من قتل وتشريد مئات الألوف من العرب...

وقد خلا التاريخ الإسلامي من مثل هذه المجازر التي تطعن بالكرامة الإنسانية، وتميِّز بين أفراد المجتمع الإنساني بسبب العرق أو الأصل أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الانتماء الديني أو السياسي أو الحالة الاجتماعية أو غيرها، وإن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في أواخر عام ١٩٤٨م وقبله وبعده، كل ذلك حبر على ورق. ومثل ذلك بعد الاتفاقية الدولية لإزالة أشكال التمييز العنصري كافة في خمس وعشرين مادة في إعلان الجمعية العمومية للأمم المتحدة في ٢٠/ ١٠/ ١٩٦٣م.

لقد أنهى الإسلام فعلاً كل ألوان التمييز العنصري بدءاً من العهد النبوي وما تبعه من العهود إلى تاريخ إلغاء الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م، ومن أمثلته

الرائعة: «أن أبا ذر الغفاري قال لبلال الحبشي: يا ابن السوداء[١]، فبلغ النبي عليه الصلاة والسلام الخبر، فغضب وقال: طف الصاع، طف الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح. فندم أبو ذر ووضع خده على الأرض، وقال لبلال: قم فطأ عليه»[٢].

وأعلن النبي ﷺ في حجة الوداع (الميثاق الخالد): «يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»[٣].

إن هذه صفحة مشرفة من أمجاد الإسلام في التسوية بين الناس، وما قام ويقوم به غير المسلمين في كل زمان طعنة مخزية في جبين الإنسانية من ألوان التمييز العنصري بسبب افتقاد الوازع الديني.

سبب التفرقة العنصرية في اللون وعلاجها

إن النظرة إلى اللون مكتسبة تبدأ من خلال مرحلة الطفولة الأولى، وهذه النظرة لها دوافعها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية عند الرجل الأبيض، ولم تصبح مشكلة عالمية إلا بعد عصر الكشوف الجغرافية الذي قاد الأوربيين إلى ما وراء البحار[٤]. وبرز التصور الأوربي حول إهدار الكرامة الإنسانية فيما يقوله (منتسكيو) في كتابه (روح القوانين) ١٧٤٨م مدافعاً عن قومه في استنزاف الأفريقي الأسود واستبعاده، فيقول: «لو أردتُ أن أوضح حقنا في استعباد الزنوج لقلت: إن الشعوب الأوربية بعد أن قضت على سكان أمريكة (من الهنود الحمر) أخذت في استعباد الشعوب الإفريقية لتعمل في الأرض، وهي مخلوقات سوداء من قمة الرأس إلى أخمص القدم وأنوفها فطساء فطساً إلى درجة يكاد أن

(١) يعيره بأمه.
(٢) أخرج البخاري ومسلم نحوه عن أبي ذر رضي الله عنه.
(٣) شرح مسلم للنووي ١١/ ١٦٧، الأحوذي شرح جامع الترمذي ٦/ ٣٧٥.
(٤) الإسلام والتفرقة العنصرية للدكتور عبد العزيز كامل، ص٩ وما بعدها.

يكون من المستحيل أن ترثي لها، وإني أعتقد أن الله - جلت قدرته - لأحكم من أن يضع روحاً - فضلاً عن روح طيبة - في جسم حالك السواد»[١].

دل هذا على أن التفرقة العنصرية - في أساسها - تقوم على أسس اجتماعية واقتصادية وسياسية، وأن العالم الغربي لا ينقصه العلم الموضوعي بالحقيقة.

وعلاج هذه المشكلة تبدأ في الدين بتقرير أن الناس جميعاً خلقهم الله تبارك وتعالى، والله واحد لا شريك له، ومن هذا التوحيد تصدر الوحدة الحتمية لجميع البشر، وحدة لا يحمل فيها الإنسان إلا مسؤولية عمله وحده، ويتساوى فيها مع إنسان آخر على امتداد الزمان والمكان[٢].

والإنسانية أسرة كبيرة، الخالق واحد، والنفس واحدة، منها خلق زوجها، ومن هذه الأسرة تشعب الناس رجالاً ونساء، كما أرشدت الآية الأولى من سورة النساء.

والناس في الدين والحياة إخوة كما دلت الأحاديث السابقة، وهم جميعاً أمام القضاء وفي ميزان التكاليف الإلهية، ولكل إنسان الحق في ممارسة العمل دون ضرر ولا ضرار، وكسب كل إنسان ونتاجه حق خالص له، وحياة الإنسان ودمه مكفولان مضمونان، واللون أو السواد والبياض صبغة الله تعالى، قال الله سبحانه: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٨].

والقرآن الكريم لا فرق فيه بين أسود وأبيض في الحياة والحرية والمساواة، وإن أسوأ ما شاهدناه في عالمنا المعاصر العنصرية القائمة على أساس اللون، في الولايات المتحدة الأمريكية، وجمهورية جنوب إفريقية (التي تحررت في وقت قريب) والمستعمرات البرتغالية وروديسية وفيتنام، ويضم إلى ذلك العنصرية القائمة على أساس من الاعتقاد في نقاء الدم، كما حاولت ألمانية النازية، وتحاول إلى الآن الصهيونية في (إسرائيل).

---

(١) روح القوانين، الكتاب الخامس عشر، الفصل الخامس.

(٢) د. عبد العزيز كامل، ص١٥، المرجع السابق.

العنصرية الصهيونية

ثمة صلة حيوية بين الصهيونية بصفتها كياناً غريباً عن أرضنا، وبين الإمبريالية العالمية، وأفرز ذلك تصوراً سياسياً للاستعمار الصهيوني في (إسرائيل) بصفات ثابتة أساسية، من أبرزها التكوين العنصري والسياسية العنصرية، وما يرتبط بها من الإدمان على العنف والنزعة التوسعية، والإيمان بالوحدة القومية لجميع اليهود الذين يتم تعريفهم على أساس السلالة المشتركة، ويترتب على هذا الإيمان العنصري ثلاث نتائج.

الانغلاق العنصري، والتمييز العنصري، والاستعلاء العنصري، وهذه المبادئ هي لب الأيديولوجية الصهيونية.

جاء في دائرة المعارف البريطانية تعريف الصهيونية بأنها حركة قومية يهودية تستهدف إنشاء دولة قومية يهودية في فلسطين وتدعيمها باعتبارها - أي في زعمهم - الوطن القومي لليهود.

هذه العنصرية الصهيونية لم تقتصر على قتل عرب فلسطين ومحاولة تهجيرهم وإنهاء وجودهم في فلسطين، كما يبدو في سياسة هذا الكيان في الماضي والحاضر، وآخرها تدمير بيوت أهل غزة عام ٢٠٠٩م، وإنذار أصحاب المنازل العرب بإخلاء أكثر من ألف منزل في القدس تمهيداً لهدمها ثم إسكان اليهود فيها، وإنما امتدت إلى قصف المدنيين سابقاً ولاحقاً في مصر وسورية ولبنان سنة ٢٠٠٦م وغيرها، لا فرق بين المصانع والدور والمدارس والمشافي، سواء في الحروب السبعة والثمانية بين العرب والصهاينة، أم قبلها وبعدها، في أعوام ١٩٧٠، ٢٠٠٨ وغيرها[١].

إن توضيح مرامي العنصرية الصهيونية، والتفرقة العنصرية في العالم واجب دائم ينبغي متابعته في كل مناسبة وغيرها.

---

(١) د. عبد العزيز كامل، المرجع السابق، ص٤٣-٤٦.